سميرة عزام

بقلم أبي سلمى

كانت الآمال تتوهج مع اطلالة الفجر على جبال الجليل في اوائل سنة ١٩٤٨ ، وكانت الاشعة تنعكس على الوجوه العربية في تلك السفوح، ومن بين تلك الوجوه العربيات الصباح كان رجال من سورية العربية توافدوا من شتى الارجاء الى وطن العرب فلسطين ، ليعتنق العرق والدم في التراب المقدس ، فالهب مجيء تلك العصبة المؤمنة، فلسطين كلها ، وتداعت سيدات عكا وفتياتها فيمن تداعى الى الترحيب بالمجاهدين ، وتبرعن لهم بمصاحف وكتب وكنزات صوف نسجتها ايديهن الكريمة لتقيهم غائلة البرد في ذرى الجبال . وكان نصيب أحدهم وهو الضابط الباسل فتحي الاتاسي كنزة صوف جد في جيبها ورقة كتب عليها :

سيروا على وضح النهار فالحق من نور ونار

والتوقيع : سميرة عزام .

لبس الفارس كنزة الصوف المنسوجة بخيوط نور العيون والامل لبسها معتزا كالدرع الواقية في المعارك .

وكان فتحي الاتاسي من اولئك الميامين الذين وضعوا ارواحهم على اكفهم في الميادين ، وما هي الا جولة حتى ترجل القائد الشجاع وسقط شهيدا على ثرى فلسطين ، وهو يلبس كنزة الصوف التي نسجتها ابنة فلسطين « سميرة عزام » للفارس العربي المجهول .

من ذلك اليوم عرفت اي قلب كبير تحمله سميرة عزام ، ولما حلت النكبة عرفت اية جراح يحملها ذلك القلب ، وانني لاشفق على الكاتب الذي يخرج الحرف محترقا من قلبه ، فما بالك اذا كان ذلك الكاتب يعيش مأساة شعبية برمتها .

وهكذا حملت سميرة عزام وطنها المثخن في قلبها الكسير، وتنقلت غريبة في الوطن العربي الكبير تحمل الحرف العربي آلام أبناء شعبها جميعهم وآمالهم . وكان حرفها يخفق خفقات النجم في وطنها وينقل الى الديار الغربية عبير البرتقال وشذا التراب الحبيب . وهكذا لمع حرف سميرة عزام شهابا في الافق العربي ، وهكذا سطع نجمها ، ما ارتفع نجمها الا على الصدق في العاطفة والاخلاص في التعبير ، ما لمع حرفها الا على الصورة النابضة بحياة الشعب ، شعبها الفلسطيني المشرد ، فكان حرفها مثلها ، مثل شعبها ، ما زادتهم النكبة الا صفاء جوهر ، وما زادهم اللهيب الا طيب عنصر .

كان أغزر ينبوع تستقي منه سميرة عزام هو شعبها ووطنها وقلبها. كانت تعتمد على الشعب والوطن والقلب في صورها ، ولم تعتمد كما اعتمد غيرها على أصباغ المراهقة وألوان الجنس . . فمحت الرياح والامطار صورهن الباهتة ، وازدادت صورها تألقا وخلودا .

لا أدري اذا كانت هنالك قاصة عربية تجاري سميرة عزام في قصصها الرائعة ، اشراقة عبارة ، وسمو فكرة ، ووضوح لوحة ، ورشاقة ريشة ، وحرارة عاطفة ، ورهافة احساس .

تقلبت طوال عشرين عاما كما تقلب قومها على اللظى ، وعاشت المأساة كما عاش أهلها ، وعصف بها الظلم كما عصف بشعبها ، فأية قاصة عربية تمرست بهذه التجارب الداميات حتى تستطيع أن تعبر عن نكبة الشعب كما استطاعت سميرة عزام .

ان اتحاد الكتاب الفلسطينيين الذي فقد بغياب سميرة عزام عن الساحة ، ركنا من أركانه ومناضلة فلسطينية كانت حاملة الراية في الميدان ، ليعز عليه أن يفقد هذه الفارسة في هذا الوقت بالذات . هذا الوقت الذي نحن فيه بحاجة ماسة الى النضال الدامي أكثر من اي وقت مضى ، في وقت تحفي فلسطين كل فلسطين ، وراء الظلام ، فتختلج الفرسان وتتلجلج الالسنة وتذوب الكرامات وتغيب المروءات وتتخاذل الرقاب وينخلع الركا بولا يلوح من وراء الحدود الا ظلال الشرف المثلوم .

غابت صاحبة القلم المشرع أبدا ، الشامخة المتحدية في وقت ركع فيه أشباه الرجال خوفا من المعركة وسيوفهم ملقاة على الرمال خجلة في أغمادها .

ان الكاتب الحر لا يموت الا واقفا في الساحة مثل قلمه الحر يتحطم ولا ينحني أمام العاصفة .

كنت مع سميرة عزام وبعض الاصدقاء في آخر جلسة معها ، على شرفة بيت صديق في أعلى الجبل ، وأخذنا نتحدث عن النكبة الكبرى وأبدت رغبتها في الذهاب الى عمان لترى شظايا الاهل الذين نجوهم وتستنشق رياح فلسطين الهابة من فوق الجسر المنكسر على الاردن الباكي ، وترى أرض فلسطين المنشبثة باقدام بنيها المشردين .

ثم جاءني النبأ الفاجع بأن سميرة عزام سقطت وهي في طريقها الى النهر الباكي والجسر المنكسر والارض المجرحة ، لقد ناء القلب الكسير الذي حمل الوطن المثخن فوقف في منتصف الطريق .

كانت سميرة عزام قبل الفاجعة الاخيرة مجنحة بالامل كانت مثل شجرة اللوز التي كتبت عنها تقول :

وحدثوني بأن الشجرة العريانة ، الشجرة التي كانت مظلمة لفرط ما تزهر ، لم تهو ، فثمة جذور لها في أرض أصيلة ، وقد سألوها لماذا لا تتسربل بالخضرة لتكون لها هوية الشجرة أو تموت ، فقالت : اقسمت أن ينعقد وعدي الا لعيونهم ، هؤلاء الذين باعدت بيني وبينهم ايام فما اطعم ابدا الا اليد التي جعلتني يوما موصولة باسباب الحياة .

بالامس ـ تقول سميرة عزام ـ تمثلت لي شجرة اللوز في حلم فما رأيتها يباسا لانها اشاعت كل نجيماتها البيض كمن في عيد ، وخلتني اسمعها تقول سيعودون واعود شجرة لها كرامات الشجر في حديقة ربيع فلسطين .

هكذا قالت سميرة عزام منذ مدة قبل الفاجعة الاخيرة ، فلما انجلى الحلم عن يقظة مرعبة ، ولم يعد لربيع فلسطين عودة قريبة ، يبست الجذور في الارض الاصيلة ، وماتت شجرة اللوز عندما انقطعت اسباب الامل والحياة ، ولم تعد تشيع النجيمات البيض . وهكذا انطفأت سميرة عزام .

وبعد ـ لقد جئنا هنا في هذا اليوم لا لنبكي على اموانتا ، وانما لنبكي على احيائنا الاموات .

ابو سلمى